خطاب النهضة

... كلما اقتربنا من نهاية القرن تكثف الشعور بالزمن، واحتدمت المراجعات العصبية لمسيرته، وتجلى الإحساس بأننا نقترب من حافة خطيرة هى الحد المسنون الذي يقف مفصليا بين عصرين، وكان ذلك يتمثل دائما في العصور القديمة على شكل نبوءات فاجعة بنهاية العالم وقرب القيامة، لكنه أخذ صورة أكثر عصرية في مقولات سقوط الأيديولوجيا ونهاية التاريخ، واتسم لدينا على وجه الخصوص بشعور حاد من التوتر والإحباط، وفشل مشروع النهضة في التنوير وتحقيق أهداف الوحدة والتقدم.

لكن المقاربة النقدية لخطاب النهضة - كما يتجلى في أعمق مكوناته الحميمة وأكثرها جماهيرية - يثبت لنا بطلان تلك الأحكام المتسرعة، التى تدين حركة التاريخ العربي وتنعى انكساراته لتوهمنا بوقوعه في مستنقع آسن، يتخبط فيه على هامش الحضارة المعاصرة، إن لم يناصبها العداء السافر. فقد تم تكريس

مصطلح النهضة ذاته والإجماع على مشروعيته منذ ما يربو على قرن من الزمان، وتعددت السبل لتحقيقه متمثلة في عدد من المنظومات الفكرية والأيديولوجية، التى تعرض على محك الاختبار التاريخى في الممارسة العملية، فتتضح نجاعة بعضها وقصور بعضها الآخر عن بلوغ الأهداف الاستراتيجية المنشودة، فحتى من يرفع شعار العودة للماضى يتذرع لذلك بأنه سبيل النهضة والتقدم. ولم ينشأ الخلاف على هذا المصطلح إلا عندما أراد أن يفسح المجال لابنه ووريثه الطبيعى، وهو "الحداثة" التى شابتها في بعض الأوساط الأوربية والعربية دلالات فارقة اقتسم حولها الناس ولا يزالون مختلفين.

فإذا اقتصرنا على تحليل بعض ملامح خطاب النهضة - كما يتجلى في شعر شوقى مثلا - أمكننا أن نضع الإطار الملائم للكشف عما أنجزه هذا الخطاب وأسسه من رؤية تقدمية لم تعد مجال انتكاس أو شك في ضمير الثقافة العربية الحديثة. على أن هذا الشعر لم يكن الباني الرئيسى لها بقدر ما كان المعبر الصريح عنها، فميزته تتمثل في شفافيته وقدرته على تمثل الرأي العام والنطق بصوته أكثر من صناعته أو قيادته. ويتعين علينا حينئذ أن نطرح سؤالين أساسيين على عينة هذا الخطاب:

أولهما : ما هي منظومة القيم النهضوية الجديدة التي بشر بها وتبناها؟

وثانيهما: هل نجح في ترسيخها وتحويلها إلى رؤية استراتيجية تحدد المسار الذي تتوجه إليه الثقافة العربية الحديثة؟

وبقدر ما نقيم القرائن الدالة من قلب الشعر ذاته والمتمثلة في عدد من القصائد الناجحة في التعبير الجمالي الراقى عن هذه الرؤية، فإن درجة ذيوعها بين المتلقين وحظوتها في أوساطهم، تعد برهانا فنيا وسوسيولوجيا على تمثيلها للرأي العام الذي تساهم في تكوينه وتحديد اتجاهه. فالشهرة بهذا المنظور ليست فعلا عشوائيا يكتسبه المبدع بطريقة مجانية، وإنما هى مكافأة المجتمع لمن يقدر على تجسيد حلمه والتعبير عن رؤيته، وقد كانت "إمارة" شوقى للشعر انتخابا ثقافيا لا يخضع لمؤامرات السلطة، كما كانت "عمادة" طه حسين من بعده للأدب العربي استمرارا لهذا المنظور، على ما بينهما من اختلاف يعكس مستجدات المرحلة التالية، وانتقال بؤرتها من الشعر إلى الفكر النقدي.

وحتى نعاين نماذج محددة من شعر شوقى النهضوي ، نود أن نشير بإيجاز إلى حقيقة تغيب عن بال الكثيرين وهم يتحدثون عن العقل العربي ومساحته وامتداداته، فلا يصبح بوسعهم قياس

درجة نضجه أو قصوره؛ إذ إنهم غالبا ما يقصدون بالعقل ما يتم فيه التفكير باللغة فحسب ليشمل منظومة الإنسانيات بفروعها المختلفة، أما أنواع التفكير الفنى بمواد أخرى سوى اللغة فلا تدخل عادة في حسابهم ، فإذا كان الشعر بمعناه العام الذي يشمل بقية الأشكال الأدبية من رواية ومسرح، يعتمد على التفكير باللغة ، فإن الفنون الأخرى تصنع الفكر بمواد مخالفة؛ كالموسيقى بالأصوات والرقص بالجسم والرسم بالألوان والنحت والعمارة بالكتلة والمساحة، وحتى آخر العنقود في أسرة الفنون وهى السينما تعتبر فن التفكير بالصور المتحركة. فمساحة العقل إذن لابد أن تشمل هذه الفضاءات في الإبداع الحضاري.

وإذا كان الشعر في الوطن العربي أبا الفنون كلها، مثلما كان المسرح في الثقافة الغربية، فإنه كان أبا ديكتاتوريا، متسلطا، لم يسمح لغيره من الفنون بالتنفس الحر والنمو المستقل، احتكر الميدان وأصر على القيام بجميع الأدوار، نفى السرد إلى هامش الحياة الثقافية، وطارد الملحمة إلى الأركان الشعبية، وتحالف مع السلطة ضد رعيته، حرض الحكام على أبنائه حتى لا يعيش القصر إلا في القصيدة، ولا يتجلى الرسم إلا بالكلمات، ولا يعترف بالموسيقى ما لم تكن غناء له وانبثاقا منه، أصر على أن

يكون "الديوان" الوحيد للعرب، فاضطهده إخوته الأشقاء، واستأثر بحنان أمه اللغة، وحاول أن يصبح كل شيء في تاريخ العائلة الفنية، أو لنقل على أقل تقدير إن العائلة قد تنازلت له عن ميراثها بأكمله واكتفت بمواقع هامشية، لهذا فإن خطاب النهضة يتجلى أولا في اعتراف الشعر بمنظومة الفنون ورد الاعتبار إليها، وقد التقى في ذلك بلحظة تاريخية حاسمة، عندما استطاع العلم أن يقرأ طبقات الأرض، ويفك شفرة الآثار، ويعيد بناء العمارة التاريخية؛ إذ إن هناك بعدين أساسيين في جميع الآثار هما التاريخ والفن: فهى من ناحية علامة حضور الحضارات القديمة في قلب الواقع المعاصر، بحيث تعتبر ذاكرة المكان، ورحلة الماضى إلى الحاضر، لكنها من ناحية أخرى من أهم مظاهر عبقرية الإنسان في تحديها للزمن وتطويعها للمادة وتحقيقها لعمليات الخلق والإبداع، فالآثار إذن تاريخ وفن، مما يجعل رؤية الشعر لها قراءة في التاريخ ومطارحة الفن للفن.

ومنذ مائة عام تقريبا، على وجه التحديد سنة ١٨٩٤، ألقى شوقى في المؤتمر الشرقى الدولي الذي عقد في مدينة جنيف، مطولته التى اتخذت عنوان: "كبار الحوادث في وادي النيل" وفيها يتحدث لأول مرة عن حكمة التاريخ ودلالة الآثار وروعة الفنون، لكننا

سنورد منها فحسب الأبيات القليلة التي يفخر فيها فن الشعر ويحتفي بفن العمارة حيث يقول:

قل لبان بنى فشاد فغالى
لم يجز مصر في الزمان بناء
ليس في الممكنات أن تنقل الأجبا
ل شما ، وأن تنال السماء
أجفل الجن عن عزائم فرعو
ن ودانت لبأسها الآناء
شاد ما لم يشد زمان
ولا أنشأ عصر ولا بنى بناء
هيكل تنثر الديانات فيه
فهي والناس والقرون هباء
زعموا أنها دعائم شيدت
بيد البغي ملؤها ظلماء
فاعذر الحاسدين فيها إذ لا
موا فصعب على الحسود الثناء

ويلاحظ في القصيدة عموما الطابع الجدلي في الدفاع الحضاري عن فكرة الحرية ونفى تهمة السخرة التى أشاعها اليونان عن سبل البناء العمراني في مصر. كما يلاحظ من جانب آخر انتقال الفخر إلى الأمة والتغني بآياتها الفنية، وهذه نقلة كبرى في دائرة اهتمام الشعر.

غير أن بوسعنا أن نعتبر بزوغ الوعى التاريخى في خطاب النهضة هو البداية الحقيقية للعصر الحديث في الثقافة العربية، فقبل هذا العصر كان مفهوم الزمن يعتمد على نموذج الانحدار من الذروة إلى السفح، فالحركة تمضى إلى تدهور دائم ؛ لأن العصور الذهبية هى الماضية ، والحاضر نزول إلى الأدنى، أما المستقبل فهو إطلال على الهاوية التي تمثلها القيامة بأشراطها المتداولة.

وقد كرست بعض الأحاديث التى نسبت للرسول لتأصيل هذا التصور في قوله: "أفضل العصور قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم"، ولو صح هذا الحديث لكان مقصورا على أمور الدين فحسب، أما أمور الدنيا والحياة فإن حركة الزمان تتقدم بتراكم الخبرة ونمو المعرفة. وقد جاءت نظريات التطور وبقاء الأصلح لتدعيم الأسس العلمية في قلب هذا المنظور إلى الاتجاه

العكسى، وكانت الفلسفة قد رسخت مبادئ الوعي التاريخي بالمراحل الكبرى للإنسانية على النمط التقدمي.

فعندما يأتي الشعر ليتغنى بالماضى الحضاري وأمجاده الزاهرة فإن من اليسير عليه أن ينزلق لمجاراة تصور العصور الماضية باعتبارها الذروة، وهنا نعثر على المحك الحقيقى لمدى تأصل الفكر الحديث في الخطاب الشعري، هل يقدم لنا منظورا سليما للتاريخ، أم يقع بسهولة في شرك الحنين للماضى لملاحظة تدهور الحاضر وانحطاطه؟ عندئذ نجد موقف شوقى بالغ التماسك والوضوح في رؤيته للتاريخ وإيمانه بالتقدم الإنساني والحضاري وتبشيره بالمستقبل، دون أن يقع في "النوستالجيا" أو يخضع لوهم العصور الذهبية الغابرة.

على أن هذا الموقف لم يكن مما يكتفى بتلخيصه في بيت واحد من الشعر السائر أو في عدة أبيات، بل هو مبثوث يتخلل المساحة الكلية لنصوصه ويتوزع على نسيجها بطريقة شعرية؛ إذ إن تحريك هذا المنظور التاريخى ليأخذ وضعه الصحيح لا يتم إلا عبر عدد كبير من الإشارات التى تنصب في اتجاه واحد لتكون نوع الرؤية. ويمكننا أن نلاحظ في مجموع قصائده عن الآثار سريان هذه الروح اللطيفة في حديثه عن الزمن ومسار التاريخ وحكمته.

ولعل النموذج الفائق في هذا الصدد يتمثل في قصيدته عن أبي الهول التى تتميز بما أراده لها الشاعر من إطار مسرحى حركى؛ إذ أعدها خصيصا لتلقى في مسرح الأزبكية عند افتتاحه، حيث يرفع الستار عن تمثال أبي الهول يناجيه رجل بهذه القصيدة ومطلعها:

أبا الهول طال عليك العصر ... وبلغت في الدهر أقصى العمر
فيا لدة الدهر لا الدهر شب ... ولا أنت جاوزت حد الصغر
إلا ركوبك متن الرما ... ل لطي الأصيل وجوب السحر؟
تسافر منتقلا في القرو ... ن فأيان تلقي غبار السفر؟

وفيها يقدم شوقى بانوراما تاريخية موسعة للحضارة المصرية في عهودها المختلفة، لكنه يضع البؤرة في الحاضر المتطلع للمستقبل، ويقوم بتشعير الموقف بأدواته التصويرية البارعة عبر مجموعة من الأدوات الأسلوبية، من أبرزها تكرار أدوات التشبيه الرؤيوية مثل "كأن" في قوله:

قعدت كأنك ذو المحبسين ... قطيع القيامِ سليب البصر
كأن الرمال على جانبيك ... وبين يديك ذنوب البشر
كأنك فيها لواء القضاء ... على الأرض أو ديدبان القدر
كأنك صاحب رملٍ يرى ... خبايا الغيوب خلال السطر

وعندما يتمها يجيبه رجل آخر بمقطع شعري على لسان أبي الهول الذي يتحرك لينطلق في عصر نطق فيه كل شيء حتى الحجر، وكأنه يؤذن بذلك لما سيجري عليه برنامج الصوت والضوء، فيجيبه التمثال قائلا:

نجي أبي الهول آن الأوان ودان الزمان ولان القدر

فما ظلمة اليأس صبح الر جاء، وهذا هو الفلق المنتظر

وعندئذ ينشق صدر التمثال عن فتى وفتاة، وهما رمز المستقبل، ليتحدثا عن نهضة اليوم التي ينبغي لها أن تفوق مجد الأمس:

اليوم نسود بوادينا ونعيد محاسن ماضينا

ويشيد العز بأيدينا وطن نفديه ويفدينا

سر التاريخ وعنصره وسرير الدهر ومنبره

وجنان الخلد وكوثره وكفى الآباء رياحينا

فإذا استعرضنا قصائد شوقى عن أهم الآثار التى اكتشفت في عصره، وهى كنوز توت عنخ آمون ، وجدنا السمة البارزة فيها تتركز في ثلاثة أمور، هي التي تمثل ملامح الخطاب النهضوي عنده:

أولها : الإشادة بالعلم وما ينتجه من آثار عظمى في الحضارة الحديثة، أقربها هو تلك الكشوف ذاتها، وذلك في مثل قوله :

درجت على الكنز القرون ... وأتت على الدن السنون

في منزل كمحجبِ الغيب ... استسر عن الظنون

حتى أتى العلم الجسور ... ففض خاتمه المصون

والعلم (بدري) أحـ ... ـل لأهله ما ينصعون

هتك الحجال على الحضا ... رة والخدور على الفنون

وثانيها: تمجيد الآثار ذاتها باعتبارها آيات فنية وتاريخية تتجلى فيها عبقرية الإنسان وقدرته على صناعة الخلود وقهر الزمان، وهنا تسعف شوقى قدراته المبدعة في تصوير الرسوم والنقوش والمعابد والقصور، واستحضار مظاهر الإبداع في كل ذلك.

أما الملمح الثالث الذي يمثل بؤرة هذا الخطاب، فهو معارضة الدلالة الشائعة عن دور العبودية والسخرة في إقامة هذه الصروح بالتأكيد على قيمة الحرية ورفض زمان الفرد والديكتاتورية، فيقول في إحدى هاتين القصيدتين:

إن الزمان وأهله ... فرغا من الفرد اللعين

فـــإذا رأيـــت مـــشايخا أو فتيـــة لـــك ســـاجدين
لاق الزمـــــان تجـــــدهم عـــــن ركبـــه متخلفـــين
هـــم في الأواخـــر مولـــدا وعقـــولهم في الأولـــين

ويـــصرخ في نهايـــة القـــصيدة الأخـــرى صرخـــة الحريـــة والديموقراطية التى تعد أبرز علامات النهضة، والسمة الأساسية في الفكر الحديث قائلا:

زمـان الفـرد يـا فرعـون ولى ودالـــت دولـــة المتجبرينـــا
وأصبحت الرعاة بكل أرض عـلى حكـم الرعيـة نازلينـا

وبين منظومة العلم والفن والحرية، يبنى شـوقى تـصوره عـن دينامية النهضة وأسس التقدم وقيمة الإنسان في العـصر الحـديث في بقية قصائده، عن الآثار الفرعونية الأخرى، مثـل قـصر أنـس الوجود، وعن الآثار العربية التى شهدها في ما بقـى مـن مظـاهر الحضارة العثمانية الإسلامية أو الرومانية أو الإغريقيـة، لكنهـا في جملتها لا تخرج عن هذا الإطار الفكري، الذي يتأصل فيه خطاب النهضة ويصبح أنشودة سائرة على الألسن، ورؤية مجسدة لموقـف الإنسان العربي الحديث في تطلعه لصناعة المستقبل.